المليونير النموذج

للكاتب البريطاني: لأوسكار وايلد

إن لم يكن الشخص غنيًا وذا مال فلا حاجة له بأن يكون وسيماً، إن الرومانسية هي من حقوق الغني وهي قصر عليه دون الفقير، الذي يتحتم عليه أن يكون عمليًا وعاديًا، ومن الأفضل للمرء أن يكون ذا دخل ثابت من أن يكون ساحراً خلاباً، تلك هي الحقائق الثابتة للحياة الحديثة وذلك ما لم يلحظه «هيوي ارسكاين»... مسكين أنت «يا هيوي»... إن علينا في حقيقة الأمر أن نعترف بأنه لم يكن ذا أهمية عظمى فهو لم يقم بعمل رائع أو خلافه طوال حياته... على أنه كان بهيَّ الطلعة... ذا شعر فاحم ناعم يهدهده النسيم إذا ما هب... وذا ملامح أحسن الخالق صنعها... إضافة إلى تميزه بعينين رماديتين وكان محبوباً لدى الجميع... بارعاً في كل شيء عدا تحصيل المال. ورث عن أبيه سيفه الشهير ومجموعة من المجلدات، فعلق الأول ونسق الكتب بجانب أخرى على أحد الأرفف وظل يعيش على مائتى جنيه في العام... هي كل ما سمحت له به عمة عجوز وهو في حقيقة الأمر قد بذل غاية جهده وجرب كل الأعمال. بدأ بسوق تبادل الأسهم وبقي فيها ستة أشهر ولكن ما تفعل نحلة وسط ثيران ودببة. وعمل في تجارة الشاي بعد ذلك وسرعان ما ملّ... ثم كرس نفسه للمتاجرة في الشراب ففشل وانتهى به المطاف إلى لا شيء وعاد كما كان... رجلاً وسيماً يسر الناظرين و... دون عمل. ومما زاد الأمر صعوبة أنه كان غارقاً في حب «لورا مرتون» وهي ابنة كولونيل متقاعد أضاع صبره ورباطة جأشه في الهند ولم يعثر عليهما ثانية.

وبادلته «لورا» حبًا بحب وكان مستعدًا أن يعمل من أجلها كل ما يمكن عمله... كانا سويًا أجمل وأنسب اثنين في لندن، ورغم أن الكولونيل كان شغوفاً بابنته إلا أنه لم يكن ليسمح بأن تذكر الخطوبة أمامه.

عد إلي يا بنيَّ متى ما استطعت أن تجمع عشرة آلاف جنيه... عندها سوف نرى ما يمكن عمله. هذا ما اعتاد الكولونيل أن يقوله لـ«هيوي» فتكسو سحب الكآبة فؤاده ويلجأ إلى «لورا» طالباً مشورتها.

وذات صباح عندما كان في طريقه إلى منتزه «هولندا» حيث تقطن عائلة «المرتون» توقف لزيارة صديق حميم له هو الرسام «آلن تريفور» ولم يكن ينجو من تلك المهنة تلك الأيام إلا القليل، إلا أن «تريفور» كان فناناً كذلك والفنانون هم الندرة. وقد كان «آلن» فظاً في تعامله وله وجه غطاه الكلف ولحية شعثاء حمراء على أنه كان متى ما أمسك بالريشة أستاذاً حقاً مما جعل الجميع يتهافتون على شراء لوحاته، وكان بحكم طبيعته كفنان متذوق لجمال الخُلُق مشدوداً إلى «هيوي» وهو قد اعتاد أن يردد، أن معرفة الفنانين يجب أن تقتصر على من حباهم الله جمال الروح ورجاحة العقل، وهم دون سواهم ملاك الحق في أن يحكموا العالم. ولقد زاد إعجابه وتقديره لـ«هيوي» بعد أن لمس فيه روحاً خلابة متوثبة ونفساً كريمة متزنة مما جعله يخلع عليه ميزة الدخول إلى مرسمه أنى شاء.

عندما دلف «هيوي» إلى المرسم، رأى آلن يضع اللمسات الأخيرة على لوحة لمتسول وكانت لوحة رائعة أما المتسول نفسه فكان واقفاً على منصة مرفوعة في زاوية من المرسم.... رجل ملأته الحياة حكمة ووقاراً وتغضن وجهه حتى بدا كورقة مجعدة فيما ارتسمت على محياه أقسى آيات التعاسة والشقاء وعلى كتفه علقت أسمال بالية لمعطف لطخته البقع والدموع، أما حذاؤه فكان في كل موضع منه رتق، وكان يتكئ على عكاز غليظة فيما امتدت يده الأخرى بالقبعة أملاً في شيء من كرم المحسنين.

ـ ياله من نموذج مدهش! همس «هيوي» مصافحاً صديقه.

ـ نموذج مذهل؟ ـ صرخ الرسام بأعلى صوته ـ ربما كان الأمر كذلك فأنت لا تجد الكثير من أمثاله في أيامنا هذه ولو كان «رامبرانت» هنا لعمل منه تحفة نادرة!

ـ يا له من رجل مسكين ـ قال هيوي ـ كم يبدو تعيساً ـ أظن أنكم معشر الرسامين ترون رأسماله يكمن في تعابير وجهه.

ـ بالطبع! لا أخالك تتوقع أن يبدو المتسولون سعداء أليس كذلك؟

ـ وكم يتقاضى النموذج منهم ليقف أمامك ـ سأل «هيوي» بعد أن استقر في مقعد مريح.

ـ شلناً في الساعة.

ـ وبكم ستبيع صورتك هذه يا «آلن»؟

ـ مقابل هذه... أحصل على ألفين.

ـ ألفا جنيه؟ أظن أن من حق النموذج أن يحصل على نسبة من ذلك ـ قال «هيوي» ضاحكاً: أنهم يتعبون مثلكم تماماً.

ـ هراء... محض هراء! انظر كم من الوقت نمضيه بين الألوان وقوفاً طوال اليوم من السهل عليك أن تقول ذلك يا هيوي لكني أؤكد لك بأن الفن قد يبلغ أحياناً مرتبة العمل اليدوي على أنه يستحسن أن تتوقف عن الثرثرة قليلاً فأنا جد مشغول... دخن سيجارة والزم الصمت.

ودلف الخادم بعد وهلة فأبلغ «آلن» بأن عامل البرواز يود التحدث إليه.

ـ لا تهرب يا «هيوي»، سأعود بعد دقيقة واحدة، وانتهز المتسول العجوز الفرصة ليرتاح قليلاً على مقعد خشبي كان خلفه ـ وبدا بائساً... وحيداً... كئيباً إلى حد أحس «هيوي» معه بشفقة عليه جارفة... وتحسَّس جيبه ليرى ما معه من مال فوجد عملة معدنية وجنيهاً ذهبياً. يا له من عجوز مسكين! ما من شك في أنه أكثر مني احتياجاً له ولكن ذلك يعني أنه لن يمكنني كراء مركبة ليومين. سأضطر إلى السير مشياً واتجه إلى العجوز فوضع الجنيه الذهبي في يده.

جفل العجوز قبل أن ترتسم ابتسامة واهنة على شفتيه الذابلتين.

ـ شكراً سيدي ـ قال ـ شكراً.

وعاد «آلن تريفور» فاستأذن «هيوي» خارجاً وقد تضرج وجهه خجلاً من جراء ما قام به... نال من «لورا» بعد ذلك شيئاً من التأنيب ثم عاد إلى منزله مشياً على الأقدام.

في تلك الليلة التقى «هيوي» بـ «آلن تريفور» في النادي فجلسا يتجاذبان أطراف الحديث.

ـ حسن يا «آلن» هل أنهيت رسم اللوحة؟ قال هيوي مشعلاً سيجارة.

ـ نعم يا بني وبروزتها أيضاً ـ رد «تريفور» وبالمناسبة فقد سجلت اليوم فتحاً كبيراً.

ذاك النموذج العجوز الذي رأيته ممتن لك غاية الامتنان ولقد اضطررت إلى إخباره بكل شيء عنك من أنت وأين تعيش ـ وعن دخلك وآمالك وتطلعاتك.

ـ يا عزيزي «آلن» ـ سأجده بانتظاري إذاً لدى عودتي إلى البيت ـ لكن لا بد وأنك تمزح ـ يا للمسكين! كم بودي عمل شيء من أجله. إني لأظن أن بلوغ شخص من التعاسة مبلغه هو أمر مريع، لدي أكوام من الملابس القديمة أتظنه يريد شيئاً منها؟.

أسماله البالية تكاد تهوي مزقاً!

ـ لكنه يبدو رائعاً فيها. قال «آلان» ـ لن أرسمه في حلة قشيبة أو بزة مهيبة مهما كلّف الأمر. إن ما تسميه أسمالاً هو بالنسبة لي ضرب من الرومانسية الفريدة وما يبدو لك فقراً مدقعاً هو في نظري موضوع فريد لتحفة رائعة على أني سأبلغه بعرضك.

ـ حقاً إنكم بلا قلوب معشر الرسامين!

ـ قلب الفنان يكمن في رأسه ـ «رد آلان» وعلاوة على ذلك فإن عملنا هو إدراك كنه العالم لا إصلاحه ـ قل لي الآن، كيف «لورا»؟ لقد أبدى ذلك النموذج اهتماماً بها!.

ـ لا أخالك تعني أنك قد تحدثت إليه عنها؟ قال «هيوي» وقد أحمر غضباً.

ـ ذاك المتسول كما تنعته هو أحد أغنى أغنياء «أوروبا» إن باستطاعته شراء «لندن» بكاملها دون أن يكلفه ذلك كل ثروته. إن لديه بيتاً في كل عاصمة وهو يأكل في آنية الذهب كما وأن بإمكانه أن يمنع روسيا من دخول الحرب متى أراد.

ـ ما الذي تعنيه بربك؟ سأله «هيوي» متعجباً!

ـ ما أعنيه! ـ رد «آلان» هو أن ذاك المتسول العجوز الذي رأيته اليوم في مرسمي ليس سوى البارون «هاوسبرغ» إنه من أعز أصدقائي وغالباً ما يبتاع لوحاتي وما شابه ذلك ولقد منحني الشهر الماضي إذناً بأن أرسمه كمتسول ويجدر بي أن أعترف بأنه كان رائعاً في أسماله أو «أسمالي» بتعبير أصح فتلك هي بزة قديمة كنت قد ابتعتها من أسبانيا.

ـ البارون «هاوسبرغ»! ـ يا إلهي! لقد نفحته جنيهاً ذهبياً ـ قال «هيوي» قبل أن يهوي برعب على أحد المقاعد.

ـ منحته جنيهاً ذهبياً؟ ـ صرخ «آلان تريفور» قبل أن ينفجر ضاحكاً ـ أي بني لا أخالك ترى جنيهك ثانية.

ـ أظن أنه كان يجدر بك أن تخبرني يا آلان! قال «هيوي» عابساً مقطب الجبين ـ بدلاً من جعلي أتصرف أمامه كأبله!!

ـ حسناً! بداية يا «هيوي» فإنه لم يكن ليخطر ببالي البتة أنك قد تدور موزعاً صدقاتك بهذه الرعونة... قد أبرر عطفك على نموذج ما... لكن أن تمنح عجوزاً قبيحاً جنيهاً من الذهب فذلك ما لم يدر بخلدي علاوة على أن شيئاً من الكدر كان يشوب مزاجي اليوم وعندما جئت لم أكن متأكداً من أن البارون «هاوسبرغ» كان يود ذكر اسمه وهو في تلك الأسمال البالية على الإطلاق! لقد كان اليوم في أحسن مزاج وعندما ذهبت ظل يغالب الضحك فاركاً يديه المجعدتين ـ لم أستطع إدراك كنه رغبته الملحة في معرفة كل شيء عنك على أن العجب قد بطل الآن وسيقوم باستثمار جنيهك يا «هيوي» دافعاً لك الأرباح كل ستة أشهر وستكون له قصة رائعة يرويها بعد العشاء.

ـ يا لي من منحوس شرير ـ دمدم «هيوي» متذمراً ـ إن خير ما أفعله هو أن أخلد إلى النوم ـ وأرجو ـ عزيزي «آلن» ـ أن لا تطلع أحداً على ما جرى. سيتعين علي أن أداري عن الملأ وجهي!

ـ هراء إن ما فعلته يعكس إلى أقصى حد خلجات نفسك الخيرة يا «هيوي» لا تهرب أشعل لفافة أخرى وحدثني عن «لورا» بالقدر الذي يحلو لك. على أن «هيوي» لم يتوقف وتابع المسير إلى منزله في موكب من الأحزان فيما خلف «آلان» وراءه... غارقاً في نوبات من الضحك.

على مائدة الإفطار صباحاً أتاه الخادم ببطاقة كتب عليها ـ السيد جوستاف نوديف ـ من طرف البارون «هاوسبرغ».

ـ أظنه أتى معتذراً ـ قال «هيوي» لنفسه قبل أن يأمر خادمه بالسماح للزائر بالدخول ودخل عليه كهل مهيب... قد وخطت شعره كف المشيب ويلبس نظارة ذهبية وقال في لكنة فرنسية هادئة بعض الشيء.

ـ هل السيد «ارسكاين» هو من أحظى بشرف التحدث إليه؟

وحياه «هيوي ارسكاين» فتابع ـ أنا قادم من طرف البارون «هاوسبرغ»... إن البارون...

ـ إني أهيب بك سيدي أن تنقل إليه صادق اعتذاري ـ تمتم «هيوي».

ـ إن البارون ـ قال الرجل مبتسماً ـ قد كلفني بإيصال هذه الرسالة إليك. وقدم له مظروفاً مغلفاً كتب عليه من الخارج: هدية زفاف إلى «هيوي» و«لورا» من متسول عجوز وداخله كانت حوالة بعشرة آلاف جنيه.

وعندما تزوجا كان «آلان تريفور» هو شاهد العريس فيما ألقى البارون كلمة مؤثرة.

يندر وجود النموذج المليونير هذه الأيام... على أن المليونير النموذجيّ أندر من ذلك بكثير.